كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة وقضية الخصومة و الصراع بين القديم والجديد

ما ان يطل علينا منتصف القرن الثالث الهجري ويبرز ابن قتيبة في مشروعه النقدي وهو كاتب واديب وشاعر وراو متوفى (٢٧٦ هـ) تأثر بآراء الجاحظ فهو يهتم بشعر المولدين اضافة الى اهتمامه بالشعر القديم ويجعل موظفين الجودة والرصانة في الاسلوب والسبك في الصياغة معياراً لمنهجه اذ يقول (اني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه في متخيره ويخذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده الإ انه قيل في زمانه أو أنه رأى قائليه)

وينطلق ابن قتيبة في مقدمة كتابه إلى تقسيم الكلام المنظم إلى اربع ضرب (أقسام)

الضرب الأول : ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه

الضرب الثاني : ضرب حسن لفظه فاذا انت فتشته لم تجد له فائدة

الضرب الثالث : ضرب جاد معناه وتأخر لفظه .

الضرب الرابع : ضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه .

فهناك نماذج تطبيقية

ف

١- ما حسُن لفظُه و جاد معناه :كقول الفرزق في مدح الإمام السجاد (ع) نجد فيها مطابقة الالفاظ للمعاني :

في كفّـــه خيزرانٌ ريحُــه عبــقٌ من كفِّ أروع في عِرنينهِ شَمَمُ

يُغضي حياءً و يُغضى من مهابته فمـــا يُكلَّـمُ إلّا حين يبتسِمُ

فمفرداته حسُنت و جاد معناه ، و كقول أوس بن حجر في مطلع مرثيته :

أيّتها النفسُ أجملي جزعاً إنَّ الذي تحذرين قد وقعا

و قول النابغة في مطلع شعره :

كِليني لهَمّي يا أُمَيمَةَ ناصبٌ و ليلٍ أقاسيه بطيِّ الكواكبِ

٢- ما حسُن لفظه و حلا ، فإذا أنت فتَّشتَه لم تجد فائدة في المعنى ، كقول القائل :

و لما قضينـــا من منى كلَّ حـــاجةٍ و مَسَّـــحَ بالأركانِ من هو ماسحُ
و شُدَّت على حدبِ المهارى رحالنا و لا ينظر الغادي الذي هو رائحُ
أخذنـــا بأطراف الأحـــاديث بيننا و سالت بأعنـــاق المطايا الأباطحُ

فهذه الألفاظ كما ترى أحسن شيء مخارجاً و أصواتاً ، و فإذا نظرت إلى ما تحتويه من المعنى لم تجد فائدة في المعنى ، و يعلل داود سلوم في كتابه " مقالات في تأريخ النقد " سبب وقوف ابن قتيبة هذا الموقف من هذا الضرب من الأشعار ، بأن النزعة الأخلاقية و النزعة الدينية الفقهية مسؤولتان عن هذا الموقف ، و لكننا إذا نظرنا إلى القسم الثالث أو الضرب الثالث من تقسيم ابن قتيبة نجده لا يعتني بالحكمة المفتقدة لجمال الألفاظ و المعاني .

و هذا يعني أن النزعة الأخلاقية ليست وراء تقسيمه العقلي للأشعار ؛ لذا يمكن أن نعلل موقف ابن قتيبة إلى فهمه الخاص لنظرية المعاني و الألفاظ ، التي تحدث عنها الجاحظ و بشر بن المعتز من قبل ، ففصل بين اللفظ و المعنى ، فهو قد نشر الألفاظ بحثاً عن المعنى فانحلَّ جمالها المتأتي من جمال الصورة الشعرية .

و يرُدّ ابن جني في " الخصائص" على ابن قتيبة و لم يصرح باسمه ، و إنما كنّى بقوله : "من ادعى عن العرب عنايتها بالألفاظ و إهمالها المعاني ، فيرى صعوبة الفصل بين اللفظ و المعنى ، و يرى أن العرب تعتني بالألفاظ ؛ لأنها عنوان معانيها و طريقها لإظهار أغراضها و معانيها ، أي أن حلاوة الألفاظ و جمالها تبرز في المعنى و تحسّنُه " .

أما الجرجاني فيعد الجمال في هذه الأبيات هو استخدام الاستعارة في أماكنها أو بمعنى آخر جمال التصوير .

٣- جادَ معناه و قَصُرت ألفاظه عنه ، كقول :

مَا عَاتَبَ الْمَرْءَ الْكَرِيمَ كَنَفْسِهِ وَالْمَرْءُ يُصْلِحُهُ الْجَلِيسُ الصَّالِحُ

و يدرج تحت هذا الضرب الأبيات التي تحمل معاني الحكمة ، أو ما سمّاه ابنُ قتيبة المعاني الجيدة الشريفة .

٤- ضربٌ تأخر لفظُه ، و تأخّر معناه :

و هو موجود في الشواهد التي افتقدت جمال المعنى و جمال الألفاظ ، و هي كل الأشعار الرديئة .

س / ما منهج ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء ؟

أو كيف نظر إلى قضية الصوٴاع بين القديم والجديد ؟

منهجية ابن قتيبة تتمثل في النقاط الآتية :

١-أعطى صورة واضحة على الشاعر واسلوبه وثقافته اذ تكلم عن السيرة الذاتية والتاريخية للشعراء .

٢-كان اهتمامه لدراسة الشعراء لاعتبارين :

أ-ما يشتمل عليه نتاج الشاعر من شواهد علمية في النحو أو الصرف أو اللغة أو العروض

ب-الدوافع الفنية التي تمثل في شعر المولدين أمثال أبي نواس وغيرهم

٣-اهتم بمطلع القصيدة في كون الاستهلال بالغزل وغيره وما رافقه من طروقات بين تمسك الشعراء بمقدمات طللية أو خمرية .

٤-صنف الشعراء إلى قسمين منهم ما جادت قريحته في نظم الشعر تحت عنوان (السهل الممتنع) وهوٴلاء يتميزون بالطبع فيطلق عليهم بالشعراء المطبوعين .

أما الصنف الآخر هم الشعراء الذين تجد في شعرهم الصنعة والتكلف فيتصف شعرهم بما فيه من تصنع والإكثار من الزخارف اللفظية والمعنوية وهوٴاء يطلق عليه بشعراء (التصنع)

٥-ذكر عيوب الشعر وهي مرتبطة بعلم العروض والقافية على سبيل المثال (ظاهرة الإقاواء)

- **الخصومة و الصراع بين القديم و الحديث :**

حاول ابن قتيبة أن يسجل ظاهرة نقدية عرفت بالعصر العباسي بظاهرة الخصومة بين القديم والجديد

الخصومة مأخوذة من مادة " خصم " بمعنى المجادلة ، و الصراع من مادة " صرع " بمعنى المغالبة . و مصطلح القديم ظهر في الكتب النقدية القديمة التراثية

، يراد به " البناء المحكم لنظام القصيدة العربية المتكونة من المقدمات الطللية أو الغزلية و وصف الرحلة و الناقة و الحيوانات المفترسة ثم الغرض الرئيس من مديح أو هجاء أو رثاء أو غزل أو وصفٍ دقيق لمظاهر الحياة الخلابة ثم الانتهاء بخاتمة ، تشتمل على بيت من الحكمة " .

و نستنتج من ذلك ان الشعراء يلتزمون بهذا البناء في القصائد الطوال (المعلقات) وقد سارت القصيدة العربية منذ العصر الجاهلي إلى نهاية العصر الأموي على هذا البناء بالرغم من وجود مقاطع شعرية تحتوي على البيتين أو السبعة أو العشرة عند بعض الشعراء ، إلّا أن النظام القديم للقصيدة العربية هو هذا الالتزام بالمقاييس الفنية التي ذكرت .

وعندما جاء العصر العباسي تلوَ انهيار الدولة الأموية و بداية الثورة العباسية و تأسيس بوصفها عاملا سياسياً أساسياً غَيَّر مجريات الحياة ، و إشاعة نمطية جديدة في التحضر و التمدن ، فضلاً عن ذلك شيوع مظاهر جديدة ، نتيجة الاحتكاك بالأمم كالفارسية و الرومانية و الهندية و اليونانية ، و نزوح شعراء من تلك الأمم ، كل ذلك غير نظام القصيدة . و ذلك برفض القالب الكلاسيكي لنظام القصيدة العربية ، فاتجه الشعراء لنبذ المقدمات الطللية و الابتعاد عن وصف الرحلة و الحيوان ، و الابتداء بالغرض الرئيس من مدح أو رثاء أو غزل أو هجاء ، و ما نتيجة ثورة أبي نؤاس على المقدمات الطللية ، إلّا هي من العوامل التي ساعدت على شيوع مصطلح " الحديث " ، فأصبح لدينا شعراء يشتهرون بالقديم و شعراء يشتهرون بالحديث ، و هنالك مدرسة قديمة تلتزم بنظام القصيدة القديمة ، ومدرسة حديثة تلتزم بالنمط الجديد للحداثة ، و في كل عصر و زمان تبرز الحداثة ؛ بسبب التطور الفكري و الاجتماعي و السياسي ، من الأبيات التي رفض فيها أبو نؤاس المقدمة الطللية ، قوله :

دع الربع ، ما للربع فيك نصيب و ما إن سبتني زينب و كُعُوبُ

و لكن سبتني البابلية إنّهـــا لمثلي في طول الزمـــان سلوبُ

فهو يدعو إلى لرفض المقدمة الطللية و الغزلية في آن واحد ، و يسعى إلى الغرض الرئيس و هو وصف الخمرة ، و قد ذكر مفردة البابلية و هي إشارة إلى الغرض الذي اعتمده في الوصف .والبابلية كناية عن وصف الخمرة تستعمل لكونها بعض الانواع من الخمر تصنع في منطقة بابل .

ما العوامل التي ساعدت على ظهور قضية الصراع بين القديم و الحديث ؟ :

١- العامل السياسي : بعد انهيار الدولة الأموية و تأسيس بني العباس دولتهم القائمة على التمدن و التحضر بإفساح المجال للأمم الزاحفة على الحضارة العربية بنقل مظاهرهم و طبيعة حياتهم ، فاختلط الذوق العربي مع الذوق الأجنبي .

٢- التطور الثقافي : إذ تطوّرت الثقافة في هذا العصر الذي بازدياد حلقات الدرس ؛ ببناء المدارس كالمستنصرية و دور الترجمة و نقل الثقافات اليونانية و الفارسية و تعريبها ؛ لمعرفة مزايا و خصائص الإبداع عندهم ، مثل قصة كليلة ودمنة لابن المقفع ، و أشعار الفرس ، و خطب اليونان و غيرها من الفنون .

٣- بروز مدارس فنية و اتجاهات أدبية تأثرت بهذا النمط الجديد من التلون في الحياة ، إذ نجد آثاراً واضحة على نمطية الشعر ، مثل الانتقال من تمام البيت إلى مجزوئه على مستوى الموسيقى ، أي أن الشاعر كان يفضل ـ سابقاً ـ البيت التام لنفسه الطويل ، فأصبح في العصر العباسي يفضّل المجزوء ؛ لينسجم مع الحياة السريعة المملؤة بالرقص و الغناء ، و هذا ما نجده في شعر الغزل و النسيب و وصف الخمرة و التغزل بالغلمان ، و هي مظاهر حديثة وُجدت في العصر العباسي .

٤- ظهور مظاهر فنية على المستوى الفني ، كاعتماد الصور البيانية و المحسنات البديعية و الإكثار منها على مستوى اللفظ و المعنى فكان الشاعر القديم يتناولها عفوَ الخاطر ، أما الشاعر المحدث ـ مع حركة التجديد ـ أصبحت هذه الألوان قيماً جمالية ربما يستعين بصنعته و تكلفه لتلك الخصائص الفنية التي عرفت عند النقاد بمواهب التصنع و مواهب التزويق اللفظي و المعنوي .